

المسالك والممالك للصخرى

بقلم الدكتور محمد محمود الصياد

أستاذ الجغرافية ووكيل كلية البنات بجامعة عين شمس

بالمؤتمرات في عصرنا الحديث يرحلون إليها ويشاركون فيها .

وكان المهتمون بتقويم البلدان يجمعون وهم في طريقهم إلى الديار المقدسة كثيراً من المعلومات عن الأراضي التي يمرّون بها ، فإذا ما بلغوا غايتهم والتقوا بأخوان لهم من مشارق الأرض ومغاربها عند أول بيت وضع للناس ، استمعوا إليهم ودونوا عنهم فأضافوا إلى ما عرفوه بالمشاهدة الشيء الكثير عن طريق السماع .

وبجانب الحج اعتمد كثير من الجغرافيين المسلمين في دراساتهم على الرحلة والانتقال في البر والبحر على السواء ، ونقرأ الكثير عن رحالة قضوا سنوات طوالاً في السياحة في أنحاء الامبراطورية الإسلامية ، بل وإن منهم من تخطاها فأوغل في بلاد لم يكن قد وصل إليها الإسلام ، وكان من أعظم هؤلاء الرحالة يعقوب ، وابن حوقل والمسعودي والمقدسي ، والبكري ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وغيرهم كثير .

وينقد المقدسي الكتاب الذين لم يحفلوا بالرحلة والأسفار فيقول عن ابن خرداذبة إنه « جمع الغرباء

لم يمض قرن من الزمان على ظهور الإسلام حتى كانت الدولة الإسلامية قد شملت مساحات فسحا في قارتي آسيا وإفريقية ؛ وكان زمن التوسع والفتح قد بدأ يترك محله لفترة هدوء وثقافة ؛ وأدى التوسع السياسي وقيام أخوة واسعة النطاق إلى زيادة أهمية المعلومات عن أطراف العالم الإسلامي ؛ وبدا أن للجغرافية الوصفية ضرورة عملية بعد اتساع رقعة الدولة ، إذ أصبح من الضروري معرفة الطرق التي تربط بين أجزاء هذه الدولة الفسيحة ، وكان لابد من معرفة المسافات بين الأماكن بعضها وبعض ، فقد كانت السياسة والإدارة والتجارة وما إليها ما يتطلب وصفاً دقيقاً للأمكنة والبقاع .

ومن قبل كان الحج يتطلب معرفة بطرق القوافل إلى الأماكن المقدسة ، وكان هو نفسه عاملاً له أهميته في زيادة التعارف بين المسلمين وتبادل المعلومات . فقد كانت مكة ملتقى آلاف من الحجاج يفدون عليها من كل فج عميق . وهم من أجناس مختلفة ولكل منهم بيئته الاجتماعية الخاصة ، ومن ثم كان الحج للدارسين أشبه

وسألمهم عن الممالك ودخلها ، وكيفية المسالك إليها . ليتوصل بذلك إلى فتوح البلدان ويعرف دخلها » ويقول عن البلخي « إنه اختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة ، ولا أوضح الأمور النافعة ، وترك كثيراً من أمهات المدن فلم يذكرها » ثم يرميه بأنه « لم يدوخ البلدان ولا وطئ الأعمال » ثم يشرح منهجه هو في البحث ، فيذكر أنه لم يبق شيئاً مما يلحق المسافرين إلا أخذ منه بنصيب ، وأنه أنفق في أسفاره أكثر من عشرة آلاف درهم ، ويتحدث عن تجاربه فيقول : « قد تفقعت وتزهدت وتعبدت ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقانيين الثرائد ، ومع النواقي العصائد ... وسمت في البرارى ، وتهت في الصحارى ، وأشرفت مراراً على الغرق ، وقطعت على قوافلنا الطرق ، ومشيت في السهائم والثلوج ، ونزلت عرصة الملوك وسكنت بين الجهال » والحق أن هذه كلها تجارب حرية بأن تخلق جغرافياً يشار إليه بالبنان .

ولم يكتف الجغرافيون المسلمون بالحديث عن البلاد المعروفة ، بل كانوا يستفيدون بمعلومات الرحالة والتجار عن الجهات النائية ، وكان المسلمون قد ضربوا بسهم وافر في هذه السبيل ، ولم تكن المعلومات التي يروونها هؤلاء وهؤلاء تدون في رسائل مستقلة في أول أمرها ولهذا كانت تدمج أخبارهم في كتب الجغرافية الوصفية . كان ميدان الجغرافية الوصفية إذن هو أول الميادين التي كتب فيها الجغرافيون المسلمون ، وظهر عدد من الكتب تصف بلاد الدولة الإسلامية والبلاد المتاخمة لها أحياناً ، وكان أقدم هذه الكتب فيما نظن كتاب « المسالك والممالك » الذي كتبه ابن خرداذبة حوالى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) ثم توالى بعده الكتب ، ومنها كتاب بنفس الاسم لأحمد بن الطيب السرخسى (المتوفى سنة ٢٨٦ هـ ٨٩٩ م) تلميذ الفيلسوف الكبير أبى يوسف الكندى وقد ضاع كتاب السرخسى فيما ضاع من تراثنا المجيد .

ومن قبيل كتاب ابن خرداذبة « كتاب البلدان » لابن واضح يعقوبى الجغرافى المصرى الذى ساح في البلاد الإسلامية فشرق حتى الهند ، وغرب حتى وصل بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) ثم عاد إلى وطنه مصر بعد كل سياحاته الطويلة حيث مات في سنة ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م ثم كتاب « المسالك والممالك » للمروزى (المتوفى في ٢٧٤ هـ - ٨٨٧ م) وكتاب « المسالك والممالك » للإصطخرى موضوع هذا الحديث .

- ٢ -

والإصطخرى هو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى والمعروف بالكرخى في بعض الأحيان ، وينسب إلى اصطخر وهي مدينة في فارس ، ويذكر المؤلفون من الفرس بأنها سميت بهذا الاسم لكثرة البحيرات والمناقع التي تحيط بها حيث كانت تقوم في وادى مرغاب الضيق الذى يسمى الآن وادى « مرو دشت » ، غير بعيد من مدينة برسبوليس القديمة التي كانت عاصمة الأكمنيين فلما اضمحلت برسبوليس بعد غزو الإسكندر الأكبر قامت اصطخر إلى الشمال منها ؛ بل واستخدمت أطلال برسبوليس في بناء المدينة الجديدة ؛ ولكن اصطخر لم تلعب دوراً بارزاً في تاريخ الفرس لقيامها في منطقة بعيدة منزلة ، ولهذا لا تذكرها الكتب إلا بعد الحين والحين .

وإذا كنا نجهل تاريخ المدينة التي ينسب إليها الإصطخرى ، فنحن بالرجل نفسه أكثر جهلاً . لانعرف متى ولد ، ولا كيف سارت به الحياة حتى لقى وجه ربه ، فهو لم يتحدث عن نفسه ، ولم يتحدث عنه معاصروه ، ولا من ترجم للأعلام من بعده ، وحتى ياقوت الحموى الذى اعتمد عليه وهو يصنف كتابه « معجم البلدان » اغفل ترجمته بل والإشارة إليه في كلامه عن بلدة اصطخر مكفئاً بتسميته في مقدمة

المعجم . وهو أمر غريب من ياقوت الذى يحفل كتابه بأسماء من هم أقل نباهة من أبى إسحاق .

وليس من المستغرب ألا نعرف تاريخ ميلاد رجل ولد مغموراً ثم اشتهر فيما بعد ، وخاصة إذا كان مولده لأسرة ليست بذات شأن ، ولكن الغريب هو أن نجعل تاريخ وفاته وقد أصبح من المؤلفين المعروفين ولكننا فى هذه الحالة نستطيع أن نجتمع بين القرائن لنصل إلى تاريخ إن لم يكن صحيحاً فعليه مسحة من الصواب على أى حال . ومن هذه القرائن ما يرويه ابن حوقل فى كتابه « المسالك والممالك » من أنه التقى بالاصطخرى فى بغداد فى سنة ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م . ومنها ما يذكره الإصطخرى نفسه فى إشارة عبارة فى الفصل الذى عقده للحديث عن بلاد ما وراء النهر حيث يقول « ورأيت على باب كسن صفيحة من حديد قد كتب عليها كتابة زعم أهلها أنها بالحميرية ... فوقعت فتنة بسمرقند فى أيام مقامى بها ، وأحرق الباب ، وذهبت الكتابة ، وأعاد ذلك الباب أبوالمظفر محمد بن لقمان ابن نصر بن احمد بن أسد كما كان من جديد من غير تلك الكتابة » وقد كان أبوالمظفر هذا عامل بسمرقند من قبل عبد الملك بن نوح بن نصر الساعى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ - ٩٦٢ م . ومعنى هذا أن الإصطخرى كان لا يزال حياً يرزق فى العقد الخامس من القرن الرابع الهجرى وأنه زار فى هذه الفترة بغداد وبسمرقند ومن ثم فنستطيع أن نقول على وجه الإجمال إن وفاته كانت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى) ولا نستطيع بعد ذلك أن نحدد أى تاريخ !

- ٣ -

والإصطخرى من فئة الجغرافيين الذين يمكن أن ينطبق عليهم نقد المقدسى « فهو لم يدوخ البلدان ولا وطىء الأعمال » ولا يحدثنا الرجل عن الرحلات التى

قام بها وهو يجمع مادة كتابه ، ولكن ليس من شك فى أنه زار بعض البلدان التى وصفها ونجد فى كتاباته إشارات مقتضبة تدل على ذلك فهو يقول عن مكة : « وليس بمكة ماء جار ، إلا شئ بلغنى بعد خروجى عنها أنه أجرى إليها من عين كان عمل فيها بعض الولاة ، فاستم فى أيام المقتدر أمير المؤمنين » ويتحدث عن الحجر التى كانت بها ديار ثمود الذين قال عنهم القرآن الكريم (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) ويقول : « ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا فى أضعاف الجبال » ويذكر أنه رأى فى مدين البئر التى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شبيب وكانت مغطاة لبنى عليها بيت .

ومن أمثال هذه الإشارات العابرة ، نستطيع أن نقطع بأن الإصطخرى زار ديار العرب ، وديار مصر ، وأرض الشام ، وأرض الجزيرة ، والعراق ، وما وراء النهر ، ولكننا لم نعرف كم لبث فى كل منها وأى البلاد زارها فى كل إقليم . فإذا ما أضفنا إلى هذه الأقاليم بلاد فارس موطنه الأصلى التى كان يعرفها حق المعرفة كما يدل على ذلك وصفه المفصل لكورها أو مدنها ، وزمومها ، وأحيائها ، وحصونها ، وبيوت نيرانها ، وأنهارها ، وبحارها ، فإن للإصطخرى خبرة عملية بسبعة من الأقاليم التى وصفها فى كتابه ، أما الأقاليم الأربعة عشر الأخرى فلا نستطيع أن نتطع برأى فى مدى خبرته بها ولكننا نرجح أنه وصفها معتمداً على العقل أو السماع .

بيد أن الرجل يغفل الإشارة إلى المصادر التى نقل عنها ولا يذكر شيئاً عن سمع منهم ، وإنما يكتفى بقول بلغنى كذا وكذا ، وقد أساء هذا إلى الإصطخرى فيما بعد إذ جعل « دى غويه » يتهمه بأن كتابه ليس سوى نسخة حديثة لمصنف سابق كتبه أبو زيد البلخى (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م) وهى تهمة لم يعززها

دى غويه بأى دليل ، ولعل الذى جعله يذهب هذا المذهب أمران :

أولهما : أن الإصطخرى أخطأ حينما ذكر فى مقدمة كتابه أن « الغرض منه هو تصوير هذه الأقاليم التى لم يذكرها أحد علمته » وكان البلخى قد سبقه إلى ذلك فألحق بكتابه الذى يصف البلاد متنوعة متسمة بحسب المناطق المناخية مجموعة من الخرائط التوضيحية يطلق عليها ك. ميللر K. Miller فى كتابه « الخرائط العربية » Mappal Arabical اسم أطلس الإسلام . وربما يكون الرجل لم يتطلع فعلاً على خرائط البلخى ، وكان صادقاً حينما زعم أنه أول من يتخذ الخريطة أساساً لوصف الإقليم ، وهو أمر مستغرب على أى حال من مؤلف كان معاصراً للبلخى ؛ والذى نرجحه هو أن الإصطخرى قد اطلع على خرائط البلخى واعتمد عليها فى وضع خرائطه ، ثم أراد أن يرفع من شأن كتابه فادعى أنه أول من يخرج مؤلفاً فى وصف الأقاليم على هذه الصورة ، وكان الأفضل لو أن الإصطخرى أشار إلى جهود من سبقه ، ثم بين ما أضافه هو إلى هذه الجهود ، وهو قد أضاف بالفعل للأساس الذى اتخذته لتقسيم الأقاليم يختلف تماماً عن الأساس الذى سار عليه أبو زيد .

أما الأمر الآخر الذى دعا دى غويه إلى التشكك فى نسبة الكتاب إلى الإصطخرى فهو أن بعض نسخ الكتاب تحمل عنواناً إضافياً بجانب العنوان الأصيل إذ نقرأ عليها « المسالك والممالك (صور الأقاليم) » وهذا العنوان الإضافى هو اسم كتاب البلخى . ولكن هذا لا يكفى شبهة لكى نشك فى نسبة المسالك والممالك إلى الإصطخرى : فصور الأقاليم عنوان ليس وفقاً على البلخى وحده ، وربما يكون الإصطخرى قد رأى أن كتابه يختلف عن كتب المسالك الأخرى فى أنه يعتمد على المصورة الجغرافية ، وأراد أن يبين ذلك فى العنوان ، فوضع عبارة صور الأقاليم تحت العنوان

الأصيل للكتاب ؛ أو ربما لا يكون الإصطخرى مسئولاً عن شيء من ذلك ، وإنما ترجع تبعة الأمر كله إلى النساخ الذين وجدوا لأبى زيد البلخى شهرة بين رواد علم تقويم البلدان ، فوضعوا عنوان كتابه مضافاً إلى عنوان كتاب الإصطخرى المؤلف المغمور ليروج الكتاب ويستلفت أنظار القراء .

وبجانب هذا كله ، هناك من الأدلة المادية ما يؤكد نسبة الكتاب إلى الإصطخرى فابن حوقل يذكر أنه لقي الإصطخرى فى بغداد ، ونرجح أن ذلك كان فى نحو سنة ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م كما سبق أن أشرنا ، وأنه عرض عليه كتابه فراجعوه هو والخرائط بناء على طلبه ؛ ومعنى هذا أن للإصطخرى كتاباً بالفعل ، وأن ابن حوقل راجع الكتاب وأصلحه ؛ ولا يمكن أن يكون هذا الكتاب نسخة من كتاب البلخى كما يدعى دى غويه فقد كان كتاب البلخى لا يزال مشهوراً ولم يكن قد مضى على وفاة صاحبه سوى ثمانية عشر عاماً ، وما كان الإصطخرى يستأجر أن يكون جريئاً إلى حد أن يعرض على ابن حوقل كتاباً متحلاً ويسأله إصلاحه .

ويؤكد المقدسى وهو من أعلام مدرسة البلخى لرسم الخرائط أنه فى إعداد خرائطه قد بذل غاية جهوده ليمثل عليها بصورة صحيحة أقاليم الدولة بعد أن درس عدداً من الرسوم ، منها رسوم أبرهيم الفارسى (الإصطخرى) ويرى أن هذه الرسوم « تدنو من الحقيقة وتستحق أن يعول عليها وإن كان فيها خلط وخطأ فى كثير من المواضع .

وأظن أن فى هذا كله ما يكفى للتدليل على أن الكتاب هو للإصطخرى وليس لأحد سواه .

- ٤ -

والإصطخرى كاتب ذو منهج ، وقد بدأ كتابه يشرح هذا المنهج الذى اختطه لنفسه فيقول : « أما بعد ، فإننى ذكرت فى كتابي هذا أقاليم الأرض على

الممالك ، وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها ، ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض ، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة ، تحكى موضع ذلك الإقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن ، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار ، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم ، من غير أن استقصيت ذلك كراهة الإطالة ، التي تؤدي إلى ملال من قرأه ، ولأن الغرض من كتابي هذا هو تصوير هذه الأقاليم . التي لم يذكرها أحد علمته ، أما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات وسائر ما أذكره فقد يوجد في الأخبار ، ولا يتعذر على من أراد تقصى شئ من ذلك من أهل كل بلد ، فلذلك تجوزنا في ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره ؛ فاتخذت لجميع الأرض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة ، إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ، ومقدار كل إقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلاً علم موقعه من هذه الصورة ، ولم تتسع هذه الصورة التي جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم في صورته ، من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربع والتثليث ، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة ، فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن ، وسائر ما يحتاج إلى علمه ...»

العامه » التي كتب فيها معظم من تقدمه ، فهو لم يقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض ، وإنما كان هدف كتابه أن يصف بلاد الإسلام ومدنها . ومفهوم « الإقليم الجغرافي » واضح في ذهن الإصطخري ، فهو لا يعنى تلك الأقاليم السبعة التي اصطلاح عليها القدماء ، وليس الإقليم منطقة من الأرض تحكمها دولة بعينها ؛ وإنما هو منطقة جغرافية ذات مظاهر طبيعية تكسبها شخصية مستقلة متميزة ولذلك فهو يميز بين خراسان وما وراء النهر ، مع أنهما معاً تحت حكم السامانيين ؛ ويجعل كل منهما إقليماً قائماً بذاته ، ويعلل بين الحين والحين السبب في أنه ضم جزءاً إلى هذا الإقليم أو ذاك ، فيقول مثلاً : « وضممنا الخقل إلى ما وراء النهر ، لأنها بين نهر وخشاب وجرياب ، وضممنا خراسان إلى ما وراء النهر لأن مدينتها وراء النهر ، وهي أقرب إلى بخارى منها إلى مدن خراسان ، ويجعل الأصطخري كلا من بلاد العرب ، ومصر ، والمغرب ، وبحر الروم ، وبحر الخزر أقاليم قائمة بذاتها ، ذلك لأن لكل منها ظروفاً طبيعية تميزها عن غيرها والواقع أن أى جغرافي يدرس ديار الإسلام في العصر الحديث دراسة إقليمية ، لن يختلف مع الإصطخري إلا في التفصيلات .

● ولم يكن الإصطخري موسوعياً يضمن كتابه كل ما يصل إلى علمه ، وإنما هدف إلى أن يكون كتابه جغرافياً بالمعنى الصحيح ، ولذلك يتجاوز عن ذكر كثير من الأمور التي تحفل بها كتب الجغرافيا العربية « إذ أن ذلك يوجد في الأخبار ، ولا يتعذر على من أراد تقصى شئ من ذلك من أهل كل بلد » :

ومع ذلك فإن كتاب الإصطخري لم يخل من أخبار ومن أسف أن يكون بعض هذه الأخبار مجرد خرافات سمع بها ولعل طرافتها هي التي جعلته يحرص على أن

ومن هذه العبارة نخرج بعدة حقائق منها :

● أن الأصطخري حدد نفسه منذ اللحظة الأولى بأن كتابه في « الجغرافية الإقليمية » وليس في « الجغرافية

١ - مملكة الصين

ويحدها من الشرق والشمال البحر المحيط ومن الجنوب مملكة الإسلام والهند ، ومن الغرب البحر المحيط كذلك هذا إذا أدخلنا فيها ياجوج ومأجوج وما وراءهم إلى البحر في هذه المملكة ومعنى ذلك أرض ياجوج ومأجوج عند الإصطخرى هي جهات شمال أوروبا وشمالها الغربي . ويدخل في مملكة الصين « سائر بلدان الأتراك وبعض التبت ، ومن دان بدین أهل الأوثان منهم » .

٢ - مملكة الهند

وتدخل فيها السند وقشمير وطرف من التبت ومن دان بدینهم ويقع في شرقها بحر فارس (وهو الاسم الذي يطلقه الإصطخرى على المحيط الهندي كله) وفي غربها وجنوبها بلاد الإسلام وفي شمالها مملكة الصين

٣ - مملكة الروم

وشرقها بلاد الإسلام وغربها وجنوبها البحر المحيط ، وشمالها حدود عمل الصين « لأننا ضمنا ما بين الأتراك وبلد الروم من الصقالبة وسائر الأمم من دان بالنصرانية إلى بلاد الروم » والروم الخالص في نظر الإصطخرى تمتد ديارهم من رومية إلى حد الصقالبة : « أما ما ضمنا إليهم من الإفرنجة والجلالقة وغيرهم فإن لسانهم مختلف غير أن الدين والملك واحد .

٤ - مملكة الإسلام

ويحدها شرقاً أرض الهند وبحر فارس ، وغرباً مملكة الروم وما يتصل بها من الأرض والران والخزر والسرير والروس والبلقان . والصقالبة ، وشمالاً مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الأتراك وجنوباً بحر فارس وهي بهذا الوضع تحتل مكاناً فريداً في عالم الإصطخرى لأنها تتوسط الدول العظمى جميعاً وتشترك معها في الحدود .

يضمنها كتابه ، ففي مصر مثلاً « سمكة إذا أكلها الإنسان رأى منامات هائلة » ، وبالين « دابة تسمى العداد ، بلغني أنها تطلب الإنسان فتقع عليه ، فإن أصابت منه ذلك تدود جوف الإنسان حتى ينشق ، وفي شنتروين (بالاندلس) « تقع من البحر في وقت من السنة دابة تحتك بحجارة على شط البحر ، فيقع منها وبر في لين الخزلونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً ، وهو عزيز قليل ، فيجمع وتنسج منه ثياب ، فتتلون في اليوم ألواناً » .

● ويحتفل الرجل بالخريطة الجغرافية أيما احتفال . فهي عنده أساس الدراسة الجغرافية وهذا ما تقول به جغرافية القرن العشرين ، وهو في هذه الناحية منطقي إلى أبعد الحدود إذ يتخذ للعالم المعروف على عهده خريطة يفتح بها الكتاب ليعرف من يطلع عليها موقع الإقليم الذي يصفه من العالم ، وهذا هو المنهج الجغرافي السليم الذي تتبعه في الوقت الحاضر إلا أن العلاقات الكافية لأي إقليم من أهم الأسس التي تقوم عليها دراسته . ولا يغالي الرجل في أهمية خريطته العامة ، ولذلك نجده يعتذر عن أنها لم تتسع لما يستحقه كل إقليم ، من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث « ثم يتبع هذه الخريطة للعالم بالخرائط الإقليمية فيفرد لكل إقليم صورة على حدة .

- ٥ -

ويبدأ الإصطخرى كتابه بمقدمة بعنوان « أول الكتاب » يشرح فيها الغرض من كتابه والمنهج الذي اتبعه في تأليفه والأقسام التي يقسم إليها بلاد الإسلام ، ثم يدرس الخريطة السياسية للعالم المعروف له أي « صورة الأرض ، عامرها والخراب . مقسومة على الممالك ، وهو يرى أن عماد ممالك الأرض أو ما يعبر عنه في مصطلحنا الحديث بالدول العظمى أربعة هي :

وقد ورثت مملكة الإسلام دولة أخرى كبيرة هي مملكة ايران شهر التي كانت من أكبر الممالك وأكثرها خيراً فلما جاء الإسلام دخلت في حوزته ثم اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بما استولت عليه من الممالك الأخرى فقد أخذت من مملكة الروم الشام ومصر والمغرب والأندلس ، ومن مملكة الهند « ما اتصل بأرض المنصورة والملقان إلى كابل وطرف أعلى طُخارستان » ومن مملكة الصين بلاد ما وراء النهر .

وبالإضافة إلى هذه الدول العظمى الأربع يوجد عدد آخر من الشعوب ولكن الإصطخري لا يحفل بهم لأن انتظام الممالك في نظره إنما يكون بالديانات والآداب وتقوم العارة بالسياسة المستقيمة ، وهؤلاء لاحظ لهم من ذلك كله وليس لديهم شيء يجعلهم يستحقون أفراد ممالكهم بالذكر كسائر الممالك .

* * *

وبجانب الخريطة السياسية لا يغفل الإصطخري الناحية الطبيعية من الجغرافية فالعالم عنده قسمان : جنوبي وشمال ، والحد الفاصل بينهما هو الخط الممتد من الخليج الذي يأخذ من البحر المحيط بأرض الصين إلى الخليج الذي يأخذ من هذا البحر المحيط بأرض المغرب والأندلس ، أو بعبارة أخرى الخط الذي يمتد من طرف شبه جزيرة كوريا حتى مضيق طارق أي خط عرض ٣٥° شمالاً على وجه التقريب والاقاليم التي تقع في شمال هذا الخط أميل إلى البرودة . وسكانها بيض البشرة وتزداد البشرة بياضاً كلما أوغلنا نحو الشمال أما الأقاليم التي تقع في جنوبه فبلاد حارة ، أهلها سود البشرة ، يزدادون سواداً كلما تباعدوا في الجنوب وهذا التقسيم الذي يقول به الإصطخري فيه من الصحة الشيء الكثير في حدود العالم الذي كان معروفاً له .

والأرض كلها مستديرة « والبحر المحيط محتفها كالطوق » وما بين الصين والمغرب معمور كله ، وأما

ما بين يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الشمال ، وما بين برارى السودان والبحر المحيط في الجنوب فقفر خراب ولما كان الإصطخري حيناً يذكر المسافات والابعاد يقيسها بالفراسخ أحياناً وبالمراحل أحياناً أخرى ، فهو يعتذر عن جهله بمسافة هاتين البريتين إلى شط البحر المحيط وذلك لأن سلوكهما غير ممكن لفرط البرد الذي يمنع من العماره والحياة في الشمال وفرط الحر المانع من العماره والحياة في الجنوب .

ومن البحر المحيط يتفرع بحران مهمان هما بحر فارس (المحيط الهندي) وبحر الروم (البحر المتوسط) وهما في ذلك يختلفان عن بحر الخزر (بحر قزوين) الذي « لو أخذ السائر على ساحله من الخزر على أرض الديلم وطبرستان وجرجان والمفازة على سياه كوه لرجع إلى مكانه الذي سار منه إذ لا يمنعه مانع إلا نهر يقع فيه » ولأهمية هذه البحار الثلاثة ولوقوعها في أرض الإسلام أو على أطرافها يفرد الإصطخري لكل منها فصلاً قائماً بذاته .

- ٦ -

ويقسم الإصطخري بلاد الإسلام إلى عشرين اقليماً يفصل الحديث عن كل واحد منها في فصل مستقل . هذه الاقاليم هي :

١ - ديار العرب وقد بدأ بها الإصطخري لأن فيها الكعبة ومكة أم القرى ومن ثم فهي جديرة بأن تكون محور الارتكاز .

٢ - بحر فارس ويأتي ترتيبه بعد جزيرة العرب لأنه يكتنف أكثر ديار العرب .

٣ - ديار المغرب وتشمل الأندلس وأراضي الدول المغربية الثلاث : المغرب والجزائر وتونس ثم ولايتي برقة وطرابلس في المملكة الليبية .

٤ - ديار مصر وتمتد على ساحل بحر القلزم

(البحر الأحمر) لتشمل أرض البجة في شمال شرق السودان وميناء عيذاب .

٥ - أرض الشام وتمتد من بحر الروم (البحر المتوسط) حتى البادية ومن بلاد الروم حتى حد مصر وآخر حدودها مما يلي مصر رفح .

٦ - بحر الروم .

٧ - أرض الجزيرة وتشمل العراق الشمالى فيما بين دجلة والفرات وتدخل فيها مدن وقرى تنسب إلى الجزيرة - وإن كانت خارجة عنها - لقربها منها .
٨ - العراق ويمتد إلى الجنوب من تكريت حتى عبادان على ساحل الخليج العربى .

٩ - خوزستان وهى المنطقة السهلية التى تقع في جنوب غرب ايران ويفصلها عن سائر جهات ايران جبال زاغروس ، وهى تنتمه لسهول العراق الجنوبية .

١٠ - بلاد فارس وكان الإصطخرى أكثر علما بها من غيرها إذ هى موطنه الأصلى ولهذا نجده يتحدث عنها بتفصيل لا نجده في حديثه عن الأقاليم الأخرى .

١١ - بلاد كرمان وهى أقصى الجنوب الشرقى من ايران الحالية .

١٢ - بلاد السند وقد جمعها هى وما يجاورها في إقليم واحد فهى عنده « بلاد السند وشىء من بلاد الهند ومكران وطوران » وتشمل الجزء الأكبر من باكستان العربية الحالية .

١٣ - أرمينية والران وأذربيجان وتمتد في منطقة جبال القوقاز فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود .

١٤ - الجبال وتضم الجزء الغربى من الهضبة الداخلية الوسطى في ايران .

١٥ - الديلم وتشمل المناطق الجبلية التى تشرف على سهول بحر قزوين الجنوبية .

١٦ - بحر الخزر وما حوله .

١٧ - مفازة خراسان وهى صحراء شرق إيران .

١٨ - سجستان وتشمل جزءاً من أفغانستان الحالية

١٩ - خراسان وتضم شمال أفغانستان والأطراف الشمالية الشرقية من إيران .

٢٠ - ما وراء النهر وهى أراض نهرى سيحون وجيحون (سرداريا وأرداريا كما يعرفان الآن) .

وفي دراسة كل واحد من هذه الأقاليم يعنى الإصطخرى عادة بأمور بعينها أهمها :

أ - الخريطة أو الصورة كما يسميها .

ب - العلاقات المكانية للإقليم .

ج - الأقسام الفرعية ذات الأهمية التى ينقسم إليها

د - المظاهر الطبيعية المختلفة .

هـ - الأحوال الاقتصادية للإقليم وما ينتجه من غلات .

و - المدن الكبرى وأهميتها .

ز - الطرق وأطوالها .

وربما غنى بن الحين والحين بأمور أخرى أقل أهمية في نظره كالتقود والمكايل والموازين المستعملة في إقليم ما ، أو القبائل التى تعيش في الإقليم ومنازلها ، وربما استطرد أحياناً فذكر بعض النواحي التاريخية وسيّر الرجال .

أ - الخريطة :

أما الخرائط التى في كتاب الإصطخرى فتختلف في جودتها ودرجة شمولها من إقليم إلى إقليم ؛ فصورة مصر ليس بها من البيانات ما يتناسب مع أهمية الإقليم ومساحته وليس عليها من المظاهر الطبيعية سوى النيل وبحر الروم وبحر القلزم وجبل المقطم وجبل الواحات وليس فيها من أسماء المدن سوى الإسكندرية

ودمياط وتنديس والفرما والعريش وفوة والفسطاط والقيوم والأشونين وأخيم واسوان ؛ بينما نجد خريطة فارس مزدحمة بالأسماء ومع ذلك فالإصطخري يعتذر لأنه لم يصور فيها رستاقيلاً لانتشار ذلك وكثرته . ولا الجبال لأنه ليس بفارس بلد إلا وبه جبل .

ب - العلاقات المكانية :

وفي العلاقات المكانية يحاول الرجل بقدر ما تسمح به الظروف أن يعين بدقة حدود الإقليم الذي يصفه ؛ وهو يستخدم أحياناً المظاهر الطبيعية لتعيين الحدود فإذا أعوزه ذلك اعتمد على الأقسام السياسية التي تتأخم الإقليم ؛ وهو في بعض الأحيان يحمل وصف الحدود حتى يعتذر علينا أن نستفيد منها فائدة كاملة ؛ ولكنه في بعض الأحيان يدقق ويفصل . فيعطى صورة في منتهى الوضوح ، ونذكر على سبيل المثال ما كتبه عن حدود سجستان وحدود ديار العرب .

ففي الأول نجده يكتفى بقوله : « فان الذي يحيط بها مفازة بين مكران وأرض السند ، وشيء من عمل المللقان ، ومما يلي المغرب خراسان وشيء من عمل الهند ، ومما يلي الشمال أرض الهند ، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان » .

هذا الوصف الموجز يختلف عما ذكره في وصف حدود ديار العرب فهي « يحيط بها بحر فارس من عبادان ، فيمتد على البحرين حتى ينتهي إلى عمان ، ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن ، حتى ينتهي على سواحل اليمن إلى جدة ، ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهي إلى أيلة ، وثم قد انتهى حينئذ حد ديار العرب على هذا البحر ، وهذا المكان من البحر لسان يعرف ببحر القلزم ، ينتهي إلى تاران إلى القلزم فينقطع ، فهذا هو شرق بلاد العرب وجنوبها وشيء من غربها ، ثم يمتد إليها من أيلة إلى مدينة قوم لوط

والبحيرة المنتنة (البحر الميت) إلى الشراة والبلقاء وهي من عمل فلسطين ، وأذرعات وحوران والغوطة ونواحي بعلبك وذلك من عمل دمشق ، وتدمر وسلمية وهما من عمل حمص ، ثم الحناصرة وبالس وهما من عمل قنسرين ، وقد انتهينا إلى الفرات ، ثم يمتد الفرات على ديار العرب حتى ينتهي إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانة والحديثة وهيث والأنبار إلى الكوفة ومستفرغ مياه الفرات إلى البطائح ، ثم تمتد ديار العرب على نواحي الكوفة والحيرة على الخورنق وعلى سواد الكوفة إلى حد واسط ، فتصاقب ما قارب دجلة عند واسط مقدار مرحلة ، ثم تمتد على سواد البصرة وبطائحها حتى تنتهي إلى عبادان ، فهذا الذي يحيط بديار العرب ، فما كان من عبادان إلى أيلة فإنه بحر فارس ويشتمل على نحو ثلاثة أرباع ديار العرب ، وهو الحد الشرقي والجنوبي وبعض الغربي ، وما بقي من الحد الغربي من أيلة إلى بالس فمن الشام ، وما كان من بالس إلى عبادان فهو الحد الشمالي » .

والحق أن هذا التحديد لشبه جزيرة العرب تحديد دقيق يسير مع المظاهرات الطبيعية ، ويكاد يشبه إلى حد كبير ما يجمع عليه الجغرافيون المحدثون .

ج - الأقاليم الفرعية

وكثيراً ما يرى الإصطخري أن الإقليم الواحد تتنوع أجزاؤه داخل الإطار العام فيقسمه إلى أقسام ثانوية يتحدث عن خصائص كل منها ؛ فالديلم تضم أقاليم الروبنج وجمال فادوسبان وقارن ، وقزوين ، وقوس ، وطبرستان ، وجرجان ، وديار المغرب نصفان : شرقي وغربي ؛ أما الشرقي فهو برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة وما في أضعاف هذه الأقاليم وأما الغربي فهو الأندلس ؛ وبمثل هذه الطريقة يعالج الإصطخري أقاليمه العشرين .

د - المظاهر الطبيعية

أو تكلم عن العملة والموازين والمكاييل المستعملة في الإقليم : ولا تظفر منه اقتصاديات مصر مثلاً إلا بكلمات معدودات هي أن « بها نخيل وثمار كثيرة ؛ وزروعهم على مياه النيل ، تمتد فتعم المزارع من حد أسوان إلى حد الاسكندرية وسائر الريف ، فيقيم الماء من عند ابتداء المار إلى الخريف ثم ينصرف فيزرع ثم لا يسقى بعد ذلك ؛ وأهل السند « ليس لهم عنب ولا تفاح ولا كمثرى ولا جوز ، ولهم قصب سكر ، وبأرضهم ثمرة على قد التفاح تسمى الليمونة ، حامضة شديدة الحموضة ، رخيصة ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الأنج (هي المانجو) تقارب طعم الخوخ ، وأسعارهم رخيصة ، ونقودهم القاهريات - كل درهم نحو خمسة دراهم ... ويتعاملون بالدنانير أيضاً » . أما بلاد ما وراء النهر « فمن أصعب أقاليم الإسلام وأنزهها وأكثرها خيراً ، ... وليس شيء لا بد منه للناس إلا وعندهم منه ما يقيم أودهم ويفضل عنهم لغيرهم . » . وأما الدواب ففيها من النتائج ما فيه كفاية لهم مع كثرة ارتباطهم بها ... وبلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم في الأسلحة والأدوات ، وبها معدن الفضة والذهب والزئبق الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر بلدان الإسلام إلا بتجهير في الفضة » والفواكه من الكثرة « حتى يرهاها لكثرتها دوابهم » وتصدر بلاد ما وراء النهر الزعفران الذي « ينتقل إلى الآفاق » والأوبار « من السمور والسنجاب والثعالب وغيرها مما يحمل إلى أقصى الغرب » . وهكذا نرى أن الإصطخري ليس له منهج خاص في حديثه عن الحالة الاقتصادية وإنما هو يذكر ما يرد على الخاطر دون أي ترتيب .

و - المدن الهامة .

وأكثر ما يعنى به الإصطخري في كتابه هو المدن التي يستغرق الحديث عنها جزءاً كبيراً من الكتاب ، وهو عادة يذكر المدينة وموقعها ومبانيها وما قد يكون

ويعنى الإصطخري بالمظاهر الطبيعية وحسبنا أن نتذكر أنه أفرد لكل من البحر المتوسط وبحر قزوين فصلاً خاصاً ، يتناول فيه وصف البحر وحدوده وأبعاده والجزر الموجودة فيه والثغور القائمة على سواحلها وهو عندما يصف إقليماً يتكلم عن مظاهر السطح المختلفة ويهتم اهتماماً خاصاً بالأنهار ومنابعها ومجاريها ومصباتها في البحر ، فخوزستان مثلاً « في مستوى وارض سهلة ومياه جارية ، فمن أكبرها نهر تستر وهو النهر الذي بنى عليه سابور الملك شاذروان باب تستر ، حتى ارتفع ماؤه إلى أرض المدينة ، لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض ، فيجرى هذا النهر من وراء عسكر لكرم على الأهواز حتى ينتهي على نهر السندر إلى حصن مهدي ويقع في البحر ، ويجرى من ناحية تستر نهر المسرقان ... وآخرها بالاهواز فلا يتجاوزها ... وليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتاخم نواحي تستر وجنديسابور وأصبهان ، والباقي من خوزستان كأنه أرض العراق ؛ وأما هواؤها وماؤها وتربتها وصحة أهلها ، فإن مياهها طيبة عذبة جارية ولا أعرف بجميع خوزستان بلداً ماؤه من البر لكثرة المياه الجارية بها ؛ وأما ترابها فإن ما بعد عن دجلة إلى ناحية الشمال أبيض وأصح ، وما كان إلى دجلة أقرب فهو من جنس أرض البصرة في التسبخ ... وليس بخوزستان موضع يجمد فيه الماء أو يقع فيه الثلج

هـ - الأحوال الاقتصادية

وبعد أن يصف الإصطخري مظاهر السطح والأحوال المناخية في الإقليم يأخذ في الحديث عن النواحي الاقتصادية في بعض الأحيان ؛ وحديثه عنها مقتضب دائماً يكتفى فيه بذكر الغلات التي ينتجها الإقليم دون أي ترتيب ، وربما تعرض لبعض الصناعات

بها من الآثار الهامة ، فديار مصر مثلاً « مدينتها العظمى تسمى القسطنطينية ، وهى على النيل فى شرقه شمالى النيل ، وذلك أن النيل يجرى مؤزباً بين الشرق والجنوب ، والبلد كله على جانب واحد ، إلا أن فى عدوة النيل أبنية قليلة تعرف بالجزيرة (هى جزيرة الروضة الحالية) وهى جزيرة يعبر من القسطنطينية إليها على جسر من السفن ، ويعبر من هذه الجزيرة إلى الجانب الآخر على جسر آخر ، إلى أبنية ومساكن على الشط الآخر يقال لها الجزيرة ، والقسطنطينية مدينة كبيرة نحو الثلث من بغداد ... ومعظم بنائها بالطوب طبقات ... وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات ... وبها مسجدان للجمعة بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الأسواق ، والآخر بأعلى الموقف بناه أحمد بن طولون ، وخارج مصر أبنية بناها أحمد بن طولون تكون زيادة على ميل ، كان يسكنها جنده تسمى القطائع ». أما اصطخر مسقط رأسه « فهى مدينة وسطية وسعتها مقدار ميل ، وهى من أقدم مدن فارس وأشهرها ، وبها كان مسكن ملوك فارس حتى حول أردشير الملك إلى جور ... وكان فى قديم الأيام على اصطخر سور قد تهدم ، وبنائهم من الطين والحجارة والجص على قدر يسار البانى ، وقنطرة خراسان خارج المدينة على بابها ممسكاً بيلي خراسان ، إلا أن وراء القنطرة أبنية ومساكن ليست بقديمة » .

ز - الطرق .

ولا يعدل اهتمام الإصطخرى بالمدين إلا اهتمامه بالطرق وأطوالها ، والواقع أنه وفى هذه الناحية حقها من الدراسة فما تناول إقليدس إلا وتحدث عن الطرق التى تربط بين أجزائه المختلفة وأطوال هذه الطرق وفى بعض الأحيان لا يكتفى بذكر المسافات وإنما يصف الطرق نفسها والصعاب التى تحيط ببعضها فتجعلها طرقاً غير مسلوكة ، فطريق عمان البرى إلى مكة « طريق

يصعب سلوكه فى البرية ، لكثرة القفار بها وقلة السكان ، وإنما طريقهم فى البحر إلى جدة » والواقع أن صحارى الربع الخالى أو رملة يبرين كما كانت تسمىها العرب تغزل منطقة عمان عن منطقة الجزيرة العربية لجفافها وصعوبة اجتيازها ، ولذلك كان سكان عمان وما زالوا يحجون إلى مكة بطريق البحر ، « فان سلكوا على السواحل من مهرة وحضرموت إلى عدن - أو إلى طريق عدن - بعد عليهم ، وقل ما يسلكونه ، والطريق بين عمان والبحرين طريق يصعب سلوكه وذلك « لتناع العرب فيما بينهم بها » . وبعد أن يفرغ الإصطخرى من ذكر طرق الجزيرة العربية يعتذر عن عدم ذكر الطرق الفرعية أو ما نسميه الآن بالطرق الداخلية لأن مثل هذه الطرق لا يحتاج إليها إلا أبناء البلاد ، وهم على دراية بها ، فلا حاجة به إذن إلى ذكرها ، ويكفى أن نهم بالطرق الخارجية التى تربط بين سائر أجزاء الوطن الإسلامى ، « فهذه جوامع المسافات التى يحتاج إلى علمها ، فأما ما بين ديار العرب لقبائلها من المسافات فقل ما تقع الحاجة لغير أهل البادية إلى معرفتها » .

ولو أن الإصطخرى سار على هذه الطريقة فى كل ما كتبه عن الطرق لزادت القيمة العلمية لكتابه ، ولكنه مع الأسف يكتفى فى معظم الأحوال بسرد المسافات فلا يذكر عن طرق دمشق مثلاً إلا أن « منها إلى بعلبك يومان ، وإلى طرابلس يومان ، وإلى بروت يومان ، وإلى صيدا يومان ، وإلى أذرعاء ٤ أيام ، وإلى أقصى الغوطة يوم » .

وليس للرجل وحدة خاصة لقياس المسافات فهى أحياناً بالأيام كما نرى فى حديثه عن دمشق وهى تارة بالفراسخ أو المراحل بل قد يتحدث عن طرق المدينة الواحدة فيستخدم هذه المقاييس كلها فى الحديث عنها . ولعل السبب فى هذا هو تنوع المصادر التى كان الإصطخرى ينقل عنها .

ومع كل ما للكتاب « المسالك والممالك » من ميزات فانه لم يلق من الشهرة والذيع مالم يقته كتب أخرى مماثلة ولعل السبب في ذلك أن معظم الناس قد اعتادوا أن ينظروا إلى اسم المؤلف قبل أن يهتموا بمضمون الكتاب ولم يكن الإصطخري قد أوتي حظاً من الشهرة وذيوع الاسم ؛ بل حتى الذين أخذوا منه تعمدوا أن يغفلوا ذكره كما فعل ياقوت ، أو أن يقللوا من شأن كتابه كما فعل ابن حوقل ، ولذلك لم يجد النساخ في نشر الكتاب ما يضمن لهم الربح فانصرفوا عن الاهتمام به ، فلم يصل إلى أيدينا من مخطوطاته سوى نسخ معدودات وكان ج . هـ . مولر J. H. Moeller أول من عنى بالكتاب في العصر الحديث فنشره مختصراً في سنة ١٨٣٠ م عن نسخة كتبت في سنة ٦٩٠ هـ أي بعد وفاة الإصطخري بنحو ثلاثة قرون ونصف وزوده بمقدمة باللغة اللاتينية ، ثم جاء المستشرق المعروف دى غويه

في سنة ١٨٧٠ م فنشر الكتاب باعتباره المجلد الأول من المكتبة الجغرافية العربية التي عني بنشرها ، وقد اعتمد دى غويه في نشره الكتاب على خمس مخطوطات ولم يزوده بمقدمة عن سيرة الإصطخري كما فعل مع مؤلفي المجلدات الأخرى .

ومنذ عامين أعادت وزارة الثقافة نشر الكتاب في السلسلة التي تصدرها بعنوان « تراثنا » وعهدت بتحقيقه إلى الدكتور محمد جابر عبدالعال الحيني وبمراجعته إلى العلامة المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال ، وقد اعتمد الدكتور الحيني في تحقيق الكتاب على دى غويه وعلى مخطوطة ناقصة كانت في حوزة المرحوم على باشا مبارك ثم أهديت لدار الكتب المصرية وهي محفوظة بها برقم ١٩٩ جغرافية ، كما اعتمد أيضاً على مصورتين مخطوطتين محفوظتين بدار الكتب تحت رقم ٢٥٦، ٢٥٧ جغرافية ، وبذلك جاءت طبعة وزارة الثقافة أوفى وأتم ولكنها في حاجة ماسة إلى الشروح والتعليقات .

